مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 5 السنة: 2021
ص: 329 - 345 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

مباحث علم المعاني عند سيبويه

Semantics Detectives at Sibawayh

باهي عمر[1]* أحمد لعويجي [2]
Bahi omar[1], Ahmed laoudji [2]
مخبر الدراسات اللغوية النظرية والتطبيقية
جامعة محمد بوضياف المسيلة (الجزائر)
Universite mohamed boudiaf M sila
bahiomar91@gmail.com[1] laoudjiahmed@yahoo.fr2

تاريخ الإرسال:.2020/11/08	تاريخ القبول:2021/05/01	تاريخ النشر: 2021/12/25

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى معرفة اهم مباحث علم المعاني التي تناولها (سيبويه) في كتابه الذي يعد موسوعة ثقافية جمعت حصيلة قرن من جهود العلماء، جمعها سيبويه وحللها واسس عليها قواعد علم النحو وعضدها بكثير من الشواهد اللغوية العالية. كما تحاول هذه الدراسة الإجابة عن هذه الإشكالية: هل يمكن القول بأن سيبويه هو رائد علم المعاني؟

إن مثل هذه الدراسات تتطلع لتبيين الأسس الأولى التي قام عليها علم المعاني. وقد تم جمع المادة اللغوية المتعلقة بذلك وتحليلها، ومن ثم التوصل إلى جملة من النتائج أهمها: أن كثيرا من أراء سيبويه تعد أصولا في علم المعاني.

الكلمات المفتاحية: علم المعاني. تقديم وتأخير. حذف. مسند. استفهام.

Abstract

This study aims to know the most important topics of the science Of meanings which touched her Sibawayh in his book which is considered a cultural encyclopedia It included the outcome of a century of efforts of scientists Sibawayh collected and analyzed them And he built his rules on it And followed by many high linguistic examples This study attempts to answer On this problematic Can we say that Sibawayh is the founder of semantics?

Such studies attempt to identify the first foundations upon which the science of meanings was built Material on this was collected and analyzed And then reach a set of results, the most important of which are that many of Sebawayh's views are assets in the science of meanings

* عمر باهي bahiomar91@gmail.com

Key words: Semantics, Presentation and delay, Deletion, the predicate Interrogative

مقدمة:

يعد كتاب سيبويه من الكتب المؤسسة للعلوم وهو مختلف اختلافا بينا عن كتب الملخصين والشراح. ونفهم من قول (الجرمي) أنه: «مذ ثلاثون سنة يفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه» نفهم منه أن الكتاب لا يتعلم منه القواعد النحوية فقط، وإنما كان يؤخذ منه النظر والتفتيش كما قال (المبرد). وقول(الجرمي) وإن كان في ظاهره يكشف عن صلة الرحم القائمة بين العلوم الإسلامية والعلوم العربية، وهو أكبر دليل على أصالة هذه العلوم فإنه يحمل في طياته طريقة العلماء في استنباط العلوم أو بعبارة أخرى مناهج العلماء في بناء العلم.

1: ترجمة (سيبويه):

هو عمرو بن عثمان بن قنبر إمام البصريين مولى بني الحارث بن كعب، ثم مولى آل الربيع بن زياد الحارثي، و (سيبويه) لقبه ومعناه رائحة التفاح وقيل لقب بذلك للطافته لأن التفاح من اطيب الفواكه. نشأ بالبصرة وأخذ عن (الخليل) و(يون و(أبي الخطاب الاخفش) و(عيسى بن عمر).[1] وكان كلفا بطلب الآثار والفقه. واللحن كان سبب طلبه للنحو واهتمامه به حتى برع فيه وألف كتابا في ذلك لم يسبقه أحد إلى مثله ولا لحقه أحد من بعده، قال (نصر بن علي): «كان سيبويه يستملي على حماد بن سلمة فقال حماد يوما، قال (ص) ليس أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء. فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء. فقال له حماد لحنت، فقال سيبويه لا جرم لأطلبن علما لا تلحنني فيه أبدا. »[2]

2: علم المعاني بين المفهوم والغاية:

تتميز العلوم اللغوية العربية بميزة الضبط الدقيق والتكامل في الدراسة. فهي في دراستها تنطلق من الجزء لتنتهي إلى الكل، دون أن تضع حواجز وفواصل بين علم وعلم بل تسير وفق نمط منظم يكمل فيه العلم اللاحق العلم السابق. فالصَّرْفيّ يبحث في الكلمة العربيّة من جهة بنائها وضوابطه في اللّسان العربي، وفي المعاني الأصول التي وُضعت صِيغُ الكلمات للدَّلالة عليها[3] أي يدرس الكلمة دراسة عمودية ويشتغل على شكلها الخارجي أما يتعلق بمدلول الكلمة وأصل معناها واستعمالها فذاك خاص بعلم المعجم.

والكلمة في حال الإفراد لا يفهم منها أكثر من أنها اسم شيء معين أما حصول أمر من هذا الشيء أو عدم حصوله أو وصفه بإعراب أو وبناء أو أي معنى آخر فمتوقف على وجودها في تركيب معين .[4] يقول الخضري: « إن الكلمة قبل التركيب لا معربة ولا مبنية فوصف الحركة بكونها إعرابا أو بناء متأخر عن وجود الكلمة وعن تركيبها»[5] وهنا يأتي الدور على النحويّ الذي يبحث في الكلام العربي من جهة إعراب مفرداته وجُمْله، وما يجب في تراكيب الجمل البسيطة والْمُرَكّبَةِ كجُمَلِ الشرط، وما يجوز فيها من تقديم أو تأخير، وما يجوز في الكلام من ذكر أو حذف أو نيابة، مع تحديد أصول المعاني التي تدلُّ عليها صِيَغُ الأسماء والأفعال ومشتقّاتها، ومتعلقات الفعل، وأصول المعاني التي تدلُّ عليها حروفُ المعاني[6]. أما ما يخص المعاني التي تظهر بسبب تغيير النمط التركيبي كالتقديم والتأخير والذكر والحذف والزيادة وغير ذلك فهذا خاص بدراس البلاغة وبالأخص علم المعاني.

وضع العلماء عدة حدود لعلم المعاني وهذه الحدود وإن اختلفت ألفاظها فقد اتفقت معانيها، ومن أشهرها ما وضعه (السكاكي) في مفتاح العلوم حيث قال: «علم المعاني هو تتبع خواص التراكيب في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحرز بالوقوف عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره[7].» وعرفه الخطيب (القزويني) بأنه: «علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال.[8]» وهذ الأحوال هي الأبواب الثمانية التي يدور فيها علم المعاني وهي:

- أحوال الإسناد الخبري
- أحوال المسند إليه.
- أحوال المسند.
- أحوال متعلقات الفعل.
- القصر.
- الإنشاء.
- الفصل والوصل.
- الإيجاز والإطناب والمساوات.

والسر في انحصاره في هذه الأبواب أن الدارسين تتبعوا التركيب العربي في جميع جوانبه فوجدوه، إما أن يكون خبرا وإما أن يكون إنشاء ولا يزيد عنهما، ثم هذا الخبر لابد له من مسند ومسند إليه وإسناد بينهما وأحوال هذه الثلاثة هي الأبواب الأولى، ثم إن المسند إذا كان فعلا أوشبهه قد يكون له متعلقات

وهو الباب الرابع، والإسناد هو تعليق كل واحد منهما إما أن يكون بقصر أو يكون بغير قصر وهذا الباب الخامس، والإنشاء الباب السادس ثم إن الجملة إذا قورنت بأخرى لكون الثانية إما معطوفة على الأولى، وإما غير معطوفة وهذا الباب السابع ولفظ الكلام البليغ إما أن يكون زائدا على أصل المعنى المراد وإما أن يكون غير زائد عليه وهذا هو الباب الثامن[9].

وعلم المعاني هو رأس علوم البلاغة وباقي العلوم فرع عنه ومحتاج إليه يقول الخطيبي:« علم المعاني يبحث عمّا يعرف منه كيفية تأدية المعنى باللفظ، وعلم البيان يبحث عمّا يعلم منه كيفية إيراد ذلك المعنى في أفضل الطرق دلالة عقلية، فنسبة علم المعاني إلى علم البيان نسبة المفرد إلى المركب[10]» وهذه القسمة الثلاثية الحاصلة في علوم البلاغة جاءت متأخرة فرضتها ظروف ثقافية طارئة على الساحة العلمية العربية، إذ من المعروف أن البلاغة العربية في أول أمرها كانت وحدة شاملة لمباحث هذه العلوم بلا تحديد أو تمييز وما كتبه المتقدمون خير شاهد على ذلك، ففيها تتجاور المسائل البلاغية ويختلط بعضها ببعض من غير فصل بينها[11].

ولعلهم بتقسيمهم هذا كانوا يرومون إلى تحديد غاية كل علم وهدفه وما له وما عليه وبذلك تتحدد أصوله وضوابطه ومناهجه فغاية علم المعاني تعليمنا كيفية تركب الجملة العربية لنصيب بها الغرض المعنوي، الذي نريد على اختلاف الظروف والأحوال.

وعلم البيان يهدينا إلى كيفية صوغ الصورة الفنية وتنوع الأسلوب لتظهر الدلالة المقصودة بوضوح، وأما علم البديع فيوشي الصورة في معناها ومبناها ويزخرفها الزخرفة الحية الملائمة ليزيد المعنى بهاء والمبنى رواء[12].

وأما فوائده فيمكن حصرها في:

- معرفة إعجاز القرآن من جهة ما خصه الله له من جودة السبك وحسن الوصف وبراعة التراكيب ولطف الإيجاز.
- الوقوف على أسرار البلاغة والفصاحة في منثور كلام العرب ومنظومه كي نحذو حذوه وننسج على منواله ونفرق بين جيد الكلام ورديئه[13].

3: وصف كتاب سيبويه:

لقد شكل (الكتاب) ثروة علمية فريدة جمعت حصيلة قرن من ثمرات تفكير العلماء، من لدن "أبي (الأسود الدؤلي) إلى(الخليل)، واعتمد صاحبه على آرائهم وشفعها بما سمعه من أفواه العرب الخلص وما استنبطه بنفسه، فشكل بذلك مادة للكتاب أكسبته فخار الأدب وصار شاهدا على علو كعب صاحبه.

ومما يلفت النظر في هذا المصنف صنيعه في التبويب والتأليف والترتيب، وكيف تعامل مع الحشد الهائل من المسائل النحوية واللغوية المتعددة، وهي كفيلة بأن تغرق من يتصدى لها في بحر ليس له قرار وصدق (المبرد) حين كان يقول لمن أراد أن يقرأ عليه الكتاب هل ركبت البحر تعظيما واستصعابا لما فيه[14]. وكان (أبو عثمان المازني) يقول: «من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستح»[15].

وأما ما أثير حول نسبة الكتاب إلى مؤلفه وما أثارته هذه المسألة من عجاجات كبيرة بين الدارسين، فإنه يمكن الارتكان إلى روايات تناقلها العلماء وتقطع بنسبة الكتاب إلى صاحبه قال (أبو عبيدة) «قيل ليونس بعد موت سيبويه، إن سيبويه صنف كتابا في ألف ورقة من علم الخليل فقال: ومتى سمع سيبويه هذا كله من الخليل، جيئوني بكتابه فلما رآه قال يجب أن يكون صدق في ما حكاه عن الخليل كما صدق في (ما حكاه عني»[16]. ويقول (علي النجدي): «فأنت من حيث نظرت إلى هذه القصة لا ترى إلا شكا وغمطا وما أراك ملوما ولا متحيزا إذا عددتها مثلا من أمثلة المنافسة والعصبية في الصناعة، فليس لنحوي قديم ولا حديث كتاب يجاري كتاب سيبويه أو يدانيه»[17].

وعلى الرغم من شهرة الكتاب في ذلك الزمن ومكانته الكبيرة التي كان يحتلها في الساحة العلمية، إلا أنه جاء خاليا من العنوان ويرى (علي النجدي) أن الله تعالى صرفه عن تسمية الكتاب وندب العلماء لذلك حتى تكون شهادة فضل، يؤديها الحاسد الشانئ كما يؤديها الولي الحميم على سواء[18].

وكما خلا الكتاب من العنوان فإنه خلا أيضا من المقدمة، إذ يطالعنا سيبويه في أول الكتاب بعنوان(هذا باب علم ما الكلم من العربية) وقد أرجع (عبد الصبور شاهين) هذا الصنيع إلى أن مؤلفه اكتفى بأن قدم في مستهل تأليفه الأمور التي تعد من مقدمات العلم الذي كان مزمعا تقعيد قواعده فيكون هذا الكلام منه مقدمة مناسبة في رأيه، ثم استطرد إلى آخر الكتاب في عرض ما تراءى له من أبواب الحديث[19].وعودا على بدء فإن فترة سيبويه فترة حساسة في تاريخ النحو العربي ونقلة نوعية له إذ انتقل هذا العلم من مرحلة التشعب والتشتت إلى مرحلة التصنيف والتبويب، ومن صورة المشافهة إلى صورة التدوين والتسجيل.

وقد سلك سيبويه في استخلاص القانون النحوي نهجين متميزين:[20]

- الأول: اعتمد فيه على تصنيف القوالب اللغوية المتشابهة أو التي تجمعها خاصية واحدة، ثم يقوم بعد ذلك بتصنيف يخضع للاستعمال، واصفا كل صنف في باب خاص مدعما ذلك بالشواهد القرآنية والشعرية النثرية وموردا آراء النحاة ووجوه الإعراب.
- الثاني: واستند فيه إلى عملية الاستنتاج وذلك بذكر التعابير والشواهد التي تخدم موضوعا وقضية نحوية معينة ثم يستنتج من ذلك ما يمكن أن يكون ضابطا أو قاعدة نحوية يمكن تطبيقها على كل ما يندرج تحتها من أمثلة.

وبشكل عام فإنه كان يتبع طريقا استقرائيا وصفيا يبدأ بالمادة لينتهي بالمقياس، بعكس الاتجاه الذي ساد بعد ذلك حيث كان الباب يبدأ بالحكم أو المقياس ثم تأتي المادة مصدقة له وشاهداً عليه مع ما تيسر من العلل المتراكبة[21].

أما فيما يتعلق بمسألة المنهج* الذي بقي لغزا عصيا عن الإدراك حتى أدى الأمر ببعض الباحثين إلى القول بأن "سيبويه" لم يكن يسير وفق منهج واضح، وإنما أورد مسائل الكتاب متتابعة وبذلك اضطربت فصوله وتشتت أبوابه. إلا أن هذا الرأي يرده النظر الدقيق. ذلك أن تقسيم الكتاب إلى صنفين:

- صنف خاص بالقوانين النحوية.
- وصنف خاص بالقوانين الصرفية. مشفعا بمادة صوتية واسعة لم يضف إليها التالون إلا النزر القليل*. كل هذا خير دليل على أن "سيبويه" كان يسير وفق معالم منهج واضح. يفرض عليه السير بدقة في طريق التأليف: يقول (شوقي ضيف): «وينبغي ألا نظن من ذلك أن الكتاب لم يكفل له منهج سديد في التصنيف، فقد نسق" سيبويه" أبوابه وأحكمها إحكاما دقيقا خاصة إذا عرفنا أنه أول كتاب جامع في قواعد النحو والصرف»[22].

4: مباحث علم المعاني في كتاب سيبويه:

لقد جاء (الكتاب) حاملا لإشارات كثيرة تعد أصولا في علم المعاني، وهذه الإشارات تلقفها العديد من البلاغيين وبنو عليها أصول علمهم. مما يدل على تلك الرحم والصلة القائمة بين العلمين.

ويبطل قول من قال أن النحاة قصروا بحثهم على الحرف الأخير من الكلمة بل على خاصة من خواصه وهي الإعراب والبناء وبهذا ضاق النحو وقصر مداه وحصر في جزء يسير مما ينبغي أن يتناوله*.

وفي الصفحات الأولى من الكتاب يطلعنا (سيبويه) بنص يعد أساسا في نظرية النظم التي تعتبر جذر علم المعاني، يقول مبينا ائتلاف الكلام وما يؤدي إلى صحته وفساده وحسنه وقبحه «هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة: فمنه مستقيم حسن، ومحال مستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب».[23]

فمدار الحكم على حسن الكلام أو قبحه راجع إلى حسن تأليف ألفاظه المركوزة فيه، والمحافظة على ائتلاف الألفاظ وترابطها، وذلك لا يكون إلا بتوخي معاني النحو. وقد كانت عبارة (سيبويه) صريحة في أن مخالفة الصناعة النحوية يؤدي إلى قبح الكلام يقول: «وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيداً رأيت. وكي زيداً يأتيك»[24]. فألفاظ هذا الكلام يتبرأ بعضها من بعض ومرد ذلك أن العرف النحوي يحظر دخول قد وكي على الأسماء.

كما يشير إلى أن هناك نوعا من الكلام مستقيم من جهة الصناعة النحوية، لكنه فاسد من جهة المعنى يقول: «وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه»[25].

ويقول في موطن آخر: «وإذا أردت بالكلام أن تجريه على الاسم كما تجري النعت لم يجز أن تدخل الفاء لأنك لو قلت: مررت بزيد أخيك وصاحبك كان حسنا. ولو قلت: مررت بزيد أخيك فصاحبك والصاحب زيد لم يجز.[26] » فهنا إشارة واضحة إلا أن لـ (لواو) مواضع لا تصلح فيها (الفاء)، وأن مراعات ذلك يؤدي إلى حسن النظم وائتلاف الكلام وهو بذلك قد أدرك معنى النظم قبل البلاغيين و إن لم يسمه باسمه وهذا ما دعا بعض الباحثين المحدثين إلى القول:« فإذا كان عبد القاهر هو الذي ينسب إليه ابتكار نظرية النظم، لأنه بسطها وفصلها وطبقها على أبواب جمة من البلاغة، فإن سيبويه هو الذي أمسك المصباح بكلتا يديه وأنار الطريق أمام عبد القاهر وهداه إلى الغاية المنشودة[27]».

أ: المسند والمسند إليه:

تتألف الجملة العربية من ركنين أساسيين هما المسند والمسند إليه، وهما عمدتا الكلام ولا يمكن أن تتألف الجملة من دونهما. والإسناد من أهم وأول أبواب علم المعاني ويعد سيبويه من الأوائل الذين تحدثوا عن هذا الباب يقول:« هذا باب المسند والمسند إليه وهما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بدا فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه وهو قولك: عبد الله أخوك، وهذا أخوك ، ومثل

ذلك : يذهب عبدالله فلابد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بد من الآخر في الابتداء[28]» فنص سيبويه يبين أن الإسناد كما يكون بين الاسم والاسم يكون كذلك بين الفعل والاسم وقد ذكر سيبويه المسند والمسند إليه مرارا وتكرارا في كتابه وأشار إلى أحوالهما وما يطرأ عليهما ، وقوله (لا يجد المتكلم منه بدا) معناه أن الكلام لا يمكن أن يتألف من واحد منهما دون الآخر وهذا ما نجده عند عبد القاهر إذ يقول:« ومختصر كل الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد وأنه لابد من مسند ومسند إليه وكذلك السبيل في كل حرف رأينه يدخل على جملة[29]».

ب: تعريف المسند إليه وتنكيره:

كل من النكرة والمعرفة يدل على معنى معين وإلا امتنع الفهم، إلا أن الفرق بينهما حاص في كون المعين في النكرة معين في ذاته لا من حيث هو معين، فليس في لفظ النكرة ما يشير إلى أن السامع يعرف، أما التعيين في المعرفة فمخصص والسامع عارف لذلك المعين[30].وتعريف المسند إليه من الألوان البلاغية المشهورة فهو الأصل لأنه محكوم عليه والحكم على المجهول لا يفيد وقد تحدث البلاغيون عن المعاني التي تستفاد من تعريف المسند إليه، ورأس هذه المعاني أن التعريف غايته زيادة الفائدة وإتمامها فإن فائدة الخبر أو لازمها كلما ازداد متعلقها معرفة زاد غرابة[31].

إلا أن ما حصله البلاغيون ووضعوه وقننوا عليه القواعد نثره سيبويه في كتابه ففي تعريف المسند إليه يقول: «واعلم أنه إذا وقع في هذا نكرة ومعرفة فالذي تشغل به كان المعرفة لأنه حد الكلام لأنهما شيء واحد وليس بمنزلة قولك: ضرب رجل زيدا لأنهما شيئان مختلفان، وهما في كان بمنزلتهما في الابتداء إذا قلت عبد الله منطلق تبتدأ بالأعرف ثم تذكر الخبر وذلك قولك كان زيد حليما. وكان حليما زيد، لا عليك أقدمت أم أخرت. إلا أنه على ما وصفت لك في قولك ضرب زيدا عبد الله، فإذا قلت كان زيد فقد ابتدأت بما هو معروف عنه مثله عندك، فإنما ينتظر الخبر فإذا قلت حليما فقد أعلمته مثل ما علمت، وإذا قلت كان حليما أو رجل فقد بدأت بنكرة ولا يستقيم أن تخبر المخاطب عن المنكور.»[32]، معنى هذا أن اسم كان يجب أن يكون معرفة لأنه لا يصح أن تخبر عن النكرة، وإذا كان معرفة فلا يهم أتقدم أم تأخر لأن المعنى هو هو، هذا كله من أجل أن تتم الفائدة للمخاطب لأن نفسه تتشوق أن تعرف شيئا جديد كان مجهولا لديه، وعلى المتكلم أن يراعي هذه الحاجة ويلبيها، ولن يتحقق للكلام أن يكون مدخل من البلاغة ومراعات مقتضى حال المخاطب إلا إذا ابتدأ بالمعرفة ولو أنه بدأ بنكرة لخرج

الكلام من دائرة الحسن[33]. ونفهم منه أيضا أن سيبويه يرى أن النسبة بين المسند والمسند إليه تبقى هي هي وإن حدث نسخ للجملة وكأن النسخ غطاء خارجي والنسبة باقية على ما هي.

وفي ما يتعلق بالتنكير فقد أدلى سيبويه بدلوه في هذا الباب وعقد له باباً بعنوان (باب تخبر فيه النكرة بنكرة) والذي جاء فيه: «يقول الرجل أتاني رجل يريد واحدا في العدد لا اثنين، فتقول: ما أتاك رجل أي أتاك أكثر من ذلك. ثم يقول: أتاني رجل لا امرأة فتقول: ما أتاك رجل امرأة أتتك ويقول: أتاني اليوم رجل أي في قوته ونفاذه فتقول: ما أتاك رجل: أي أتاك الضعفاء.[34]» وهنا يبين سيبويه الأغراض والمعاني التي يأتي لها التنكير والتي من بينها الوحدة الجنس والتعظيم[35].

ج: الحذف:

يعد موضوع الحذف من أدق الموضوعات البلاغية مسلكا وأدعاها لإعمال الفكر، ومن بديع أساليب اللغة أنك ترى الجمال والروعة تظهر في الكلام إذا أنت حذفت أحد أركانه، أو شيئا من متعلقاته فإذا أنت أبرزت المحذوف ضاع ذلك الرونق وزالت تلك البهجة ولهذا يقول (عبد القاهر): «هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر، شبيه بالسحر فإنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، تجدك أنطق ما تكون إذ لم تنطق. وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن»[36].

وقد ذكرت كتب البلاغة أن التراكيب العربية حين تتخفف وتسقط شيئا من مكوناتها تترك دليلا عليه يكون في أطراف وحواشي الألفاظ. ولولا هذا لكان الحذف تعمية وإلغازا لا يشار إليه بحال. والاهتداء إلى هذا المحذوف يتخذ سبيلين:

- أما السبيل الأول فإنه يهتدى إليه من جهة الصيغة الإعرابية أي تلك الآثار التي تتركها العوامل في المعمولات والتي توحي بأن شيئاً كان ثم حذف وهذا القسم ليس للبلاغة فيه مطلب. ومثال ذلك قولك:(أهلا وسهلا): فإن هذا النصب يدل على أن هناك ناصبا محذوفا.
- وأما السبيل الثاني فإنه لا يمكن التعرف على هذا المحذوف إلا بتقليب المعنى وتفتيش الكلام كونه قائما عليه ولا يتم إلا به وذلك نحو: يعطي ويمنع: أي يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، وهذا النوع تجد فيه من الحسن والأريحية والبهجة ما لا تجده في الأول[37].

وقد تضمن (الكتاب) إشارات كثيرة تعد أصولا في هذا الباب ويعد صاحبها سباقا فيه. وقد أدرك (سيبويه) المقصد الأساسي الذي تلجأ فيه العرب إلى هذا الأسلوب وهو طلب الخفة والاختصار إذ

يقول: «وذلك قولك متى سير عليه؟ فيقول مقدم الحاج وخوق النجم وخلافة فلان، وصلاة العصر فإنما هو زمن مقدم الحاج، وحين خفوق النجم لكنه على سعة الكلام والاختصار»[38].

وهذا المحذوف يمكن تقسيمه إلا ثلاثة أقسام:

- حذف جزء من كلمة.
- حذف كلمة.
- حذف جملة.

فأما في حذف جزء الكلمة ـ الحرف ـ يقول (سيبويه): «ومن ذلك اخترت الرجال عبد الله ومثل ذلك قوله عز وجل واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا وسميته زيدا وكنيت زيدا أبا عبد الله، ودعونه زيدا إذا أردت دعوته التي تجري مجرى التسمية»[39] إذ الأصل في هذه الأفعال أن توصل بحرف الجر فلما حذفوها عمل الفعل والتقدير: اخترت فلان من الرجال، وسميته بفلان وهذا النوع من المحذوف وإن كان يحمل إشارات بلاغية إلا أن علماء البلاغة لم يلتفتوا إليه[40]. أما حذف الكلمة فمنه:

أ: حذف الفعل: يقول: «هذا باب يحذف منه الفعل لكثرته في كلامهم حتى صار ذلك بمنزلة المثل، وذلك قولك هذا ولا زعماتك: أي ولا أتوهم زعماتك، ومن ذلك قول ذي الرمة:

ديارَ ميةَ إذ ميٌّ مساعفةٌ ولا يرى مثلها عجمٌ ولا عربُ.

كأنه قال اذكر ديار مية ولكنه لا يذكر اذكر لكثرة ذلك في كلامهم واستعمالهم إياه»[41].

ب: حذف المبتدأ: وهذا كثير في كلام العرب وذكر قول الشاعر:

اعتادَ قلبكَ من سلمى عوائدَه وهاجَ أهواءَك المكنونةُ الطللَ.

ربعٌ قواءٌ أذاعَ المعصراتُ به وكلُ حيرانَ سارٍ ماؤُه خَضِلُ.

وقول الآخر:

هل تعرفُ اليومَ رسمَ الدارِ والطللاَ كما عرفتَ بجفنِ الصيقلِ الخللاَ

دارٌ لمروةَ إذ أهلِي وأهلُهُمُ بالكناسةِ نرعَى اللهوَ والغزلا[42]

فالتقدير في الأول تلك دار فلانة وفي الثاني وذاك ربع أو هو ربع. وقد نقل هذا (عبد القاهر) في الدلائل ثم قال: «قال شيخنا رحمه الله ولم يحمل البيت الأول على أن الربع بدل من الطلل لأن الربع أكثر من الطلل والشيء يبدل مما هو مثله أو أكثر منه فأما الشيء من أقل منه ففاسد لا يتصور»[43].

ج: حذف خبر إن: وهذا فصيح في كلام العرب، ويعتضد فيه إلى شهادة العقل دون الاعتصام إلى اللفظ في تحديد ذلك المحذوف، وفي هذا يقول (سيبويه): «هذا باب ما يحسن السكوت عليه في هذه الأحرف الخمسة لإضمارك ما يكون مستقرا لها وموضعا لو أظهرته وليس هذا المضمر بنفس المظهر وذلك إنّ مالا وإنّ ولدا وإنّ عدداً. أي إنّ لهم مالا فالذي أضمرت لهم، ويقول الرجل للرجل هل لكم أحد إنّ الناس ألب عليكم فيقولون إنّ زيداً وإنّ عمرا أي إنّ لنا وقال الأعشى:

إنّ محلاً وإنّ مرتحلاً وإنّ في السفرِ ما مضَى مَهَلاً[44]

د: الإيجاز والإطناب:

وقد ساق سيبويه لذلك شواهد كثيرة من ذلك قول الشاعر: عمر بن شاس:

بنِي أسدٍ هل تعلمونَ بلاءَنا إذا كان يومًا ذا كواكبَ أشنَعَا

إذا كانت الحوُّ الطِوالُ كأنَّها كساها السلاحُ الأرجوانَ المضلَّعَا

فهنا أضمر لعلم المخاطب وذلك جائز في كلام العرب والتقدير: إذا كان اليوم الذي يقع فيه القتال يوماً ذا كواكب[45]. قال (مصطفى المراغي) معقبا على هذا: «وهذا ما قاله علماء البلاغة في باب الإيجاز والإطناب من جواز حذف المسند إليه للعلم به ومثلوا بقوله تعالى (كلا إذا بلغت التراقي) أي الروح[46]. ومثله ما ذكره في باب (باب ما ينتصب في الألف): كقولك: أعبد الله ضربته وأزيدا مررت به، وأعمرا قتلت أخاه. ففي كل هذا قد ضمرت بين الألف والاسم فعلاً[47]. وهذا ما يعرف عند النحاة بأسلوب الاشتغال.

هـ: التقديم والتأخير:

من الأمور المتعارف عليها في علم البلاغة، أن عبد (القاهر الجرجاني) له الفصل في تقرير قواعد هذا الباب وتبينها يقول: «هو باب كثير الفوائد جم المحاسن، واسع التصرف بعيدا الغاية، ولا يزال يفتر لك عن بديعة ويفضي لك إلى لطيفة ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء «وحول اللفظ من مكان إلى مكان[48]».

والحق أن (سيبويه) ذكر كلاما في هذا الجانب يعد العمدة وصاحب الريادة فيه، واللافت للنظر أنه وضع قاعدة تعد أصلا في هذا الباب جاء في (باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول به) «فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول وذلك قولك: ضرب زيداً عبدالله لأنك

إنما أردت به مؤخرا ما أرادت به مقدما.....كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم»[49].فالمقرر في باب الصناعة النحوية أن المفعول مؤخر عن الفاعل. لكن إن حدث وتقدم فذلك لعلة قصدها المتكلم وقد فسرها (سيبويه) بـ " العناية والاهتمام".

ونرى (سيبويه) يجعل التقديم الحاصل بسبب العناية والاهتمام أصلا يلتمسه في العديد من التراكيب من ذلك ما ذكره في (باب المفعول الذي تعداه فعله إلى مفعول) وقد خصه للحديث عن (كسى) و(أعطى)، وهذان الفعلان كما هو مشهور ينصبان اسمين ليس أصلهما مبتدأ وخبر ويجيز سيبويه التقديم والتأخير بين هذين الاسمين يقول: «وإن شئت قدمت وأخرت فقلت كسى الثوب زيد وأعطي المال عبد الله كما قلت ضرب زيداً عبد الله فالأمر في هذا كالأمر في الفاعل[50]» أي أن التقديم مرده العناية والاهتمام.

وجاء في "باب ما يحسن عليه السكوت في الأحرف الخمسة والمقصود به" (إن وأخواتها): «واعلم أن التقديم والتأخير والعناية والاهتمام هنا، مثله في باب كان ومثل ذلك قولك: إنّ أسدا في الطريق رابضاً وإن بالطريق أسد رابض»[51]. غير أن (عبد القاهر) خالف(سيبويه) ومن حذا حذوه في جعل (العناية والاهتمام) أصل باب التقديم والتأخير ويرى الذين ارتكنوا إليه أنه قد ذهب بهم عن معرفة البلاغة ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها وصدّ بأوجههم عن الجهة التي هي فيها[52].

و: الاستفهام:

أسلوب الاستفهام أحد أساليب نظم الجملة وبدخوله عليها ينقلها من معنى الخبر إلى معنى الاستخبار أي طلب الخبر أو طلب الفهم[53]. والفهم في حقيقته هو تصور المعنى من اللفظ أو هيئة بالنفس يتحقق بهاما يحسن[54] أي أن العقل يبني صورة حول الشيء العارض له. ومن الدلالة اللغوية للكلمة اشتق علماء البلاغة المفهوم الاصطلاحي للاستفهام فكان عندهم: حصول صورة الشيء في الذهن وبعبارة أخرى هو طلب ما في الخارج أن يحصل في الذهن. كما وضع البلاغيون أدوات خاصة بهذا الباب والشيء الثابت لهذه الأدوات أنها لازمة الصدارة فهي تحمل في طياتها دلالات تتشربها التراكيب ومن خلال صدارتها تدرك تلك العاني يقول(الزمخشري): «وللاستفهام صدر الكلام لا يجوز تقديم شيء مما في حيزه عليه لا تقول ضربت أزيداً وما أشبه ذلك»[55].

معلوم أن الجملة العربية تتألف من العمد وما زاد عليها فهو فضلة، وفي أسلوب الاستفهام يصلح كل واحد من هذه العناصر أن يكون مقصودا بالسؤال. وتعد الهمزة أم هذا الباب وهي أعرق فيه من باقي الأدوات وعراقتها راجعة إلى سببين:[56]

- لزومها معنى الاستفهام.
- وقوعها مواقع لا تقع فيها باقي الأدوات.

كما قرروا أن المسؤول عنه يجب أن يكون تاليا لها فإذا حمل شك في المفعول قلت: أزيداً ضربت؟ وهذا يقضي أنك قاطع بوقوع فعل الضرب من المخاطب وهي على هذا تكون للتصديق ولك أن تردف ذلك بقولك" أم علياً" ولا تقول "أم أهنت" فتقول" أزيداً أضربت أم عليا؟ ولا تقول أزيداً أضربت أم أهنت؟ لأن هذا يدل على شكك في الفعل وقد بنيت كلامك على أنك تشك في المفعول دون الفعل[57]. وهذا المعنى تلفقه علماء البلاغة كان (سيبويه) صاحب الفضل فيه يقول «وذلك قولك أزيد عندك أم عمر، وأزيدا لقيت أم بشرا فأنت الآن مدع أن عنده أحدهما .....واعلم أنك إذا أردت هذا المعنى فتقديم الاسم أحسن لأنك لا تسأله عن اللقى وإنما تسأله عن أحد الاسمين لا تدري أيهما هو»[58] إلا أن (سيبويه) يرى جواز أن يلي المسؤول عنه الهمزة ولا يعتبره واجبا يقول:« ولو قلت ألقيت زيدا أمر عمرا كان جائزا حسنا وإنما تقديم الاسم ههنا أحسن»[59] وإذا كان المسؤول عنه الفعل فهو يرى أنه من الأفضل والأحسن أن يلي همزة الاستفهام يقول:« أضربت زيدا أم قتلته فالبدء ههنا بالفعل أحسن لأنك إنما تسأل عن أحدهما لا تدري أيهما كان، ولا تسأل عن موضع أحدهما فالبدء بالفعل ههنا أحسن كما كان البدء بالاسم ثم في ذكرنا أحسن »[60]

- وخروج النداء عن معناه الأصلي قد تحدث عنه البلاغيون، لكن سيبويه كان سبّاقا إلى ذلك جاء في (باب ما يكون النداء فيه مضافا إلى المنادى بحرف الإضافة): وذلك في الاستغاثة والتعجب وذلك الحرف اللام المفتوحة، وذلك قول الشاعر وهو (المهلهل):

يا لبكرٍ أنشِرُوا لي كليبًا يا لبكرٍ أينَ أينَ الفِرارُ.

فاستغاث بهم لينشروا له كليبا وهذا منه وعيد وتهدد[61].وقد خرج النداء في البيت إلى معنى الاستغاثة، إلا أن هناك من رفض هذا المعنى ورأى أن حمل النداء على الاستغاثة ظاهر الفساد لأن الشاعر لا يستغيث بمن يهدده[62]. وقال (مصطفى المراغي) معلقا على هذا البيت «ومن هذا تعلم أن الاستغاثة

في هذا المقام استعملت للتهديد والوعيد والاستطالة عليهم، كما أن الاستفهام بهذه استعمل في هذا المعنى، وقد أخذ علماء البلاغة البيت واستشهدوا به على مثل ما استشهد به صاحب الكتاب»[63].

ز: الفصل والوصل:

لباب الفصل والوصل مكانة رفيعة وشأن عظيم في المباحث البلاغية حتى إن بعضهم حين سؤل ما البلاغة؟ قال معرفة الفصل والوصل[64]. وهذا إشارة واضحة إلى خطر هذا اللون البلاغي، ولا ريب إن قيل بأن أول من أبان هذا الباب وكشف أسراره وأسعد شذا أزهاره هو الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه الدلائل. وحديث سيبويه في باب بدل المعرفة من النكرة والمعرفة من المعرفة وقطع المعرفة من المعرفة مبتدأة يمكن أن يوضع في هذا اللون البلاغي يقول: «أما بدل المعرفة من النكرة فقولك مررت برجل عبد الله كأنه قيل له بمن مررت أو ظن أنه يقال له ذلك فأبدل مكانه من هو أعرف منه..... وقد يكون مررت بعبدالله أخوك كأنه قيل له من هو أو من عبد الله فقال أخوك، .....وتقول مررت برجل الأسد شدة كأنك قلت مررت برجل كامل لأنك أردت أن ترفع شأنه، وإن شئت استأنفت كأنه قيل له ما هو[65]» فهنا إشارة إلى ما يعرف بشبه كمال الاتصال وفيه تكون الجملة السابقة كالمورد للسؤال والمنشأ له فتفصل الثانية عنها، كما يفصل الجواب عن السؤال ويسمى الفصل لذلك استئنافا[66].

النتائج:

توصلنا في ختام هذه الدراسة إلى جملة من النتائج نوجزها في النقاط التالية:

- عرض سيبويه لعديد من صور البلاغة، وضرب لها امثلة مختلفة، وفسرها تفسيراً بلاغياً، بل احياناً يتناولها بعين الطريقة التي سلكها علماء البلاغة من بعده في مباحثهم، غاية الامر انه لم يذكر لها اسماء اصطلاحية.
- إن الآراء التي جاءت منثورة في ثنايا الكتاب والشواهد التي عضدت بها لدليل أن النحاة الأوائل كانوا يقصدون دراسة المعاني التي تشتمل عليها التراكيب.
- إن العديد من المباحث البلاغية قد تطرق لها سيبويه وإن لم يسمها باسمها والذين جاءوا من بعده كان لهم الفضل في ترتيب هذه المباحث وتنظيمها.
- ما تضمنه الكتاب دليل قوي على أن النحاة لم يضعوا حواجز بين العلوم وآمنوا ان علوم العربية يكمل بعضها بعضا.

- لا عجب إن قيل أن كتاب سيبويه هو المهد الأول لنظرية النظم التي بنيت على أسس علم النحو العربي.

هوامش:

[1]: جلال الدين السيوطي: بغية الوعاة (تح) أبوا الفضل إبراهيم، ط2، دار الفكر، مصر، 1979، ج2، ص228.

[2] : أبوا البركات بن الأنباري: نزهة الألباء في طبقات الأدباء (تح) إبراهيم السامرائي، ط3، مكتبة المنار، الأردن، ص54.

[3] عبد الرحمن حسن الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ط1، دار القلم دمشق،1996، ج1، ص137.

[4] ينظر: عباس حسن، النحو الوافي: ط18، دار المعارف، (د، ت)، ج1، ص،14.

[5] حاشية الخضري على ابن عقيل: ط1، دار الفكر، بيروت،2003، ج1، ص491.

[6] البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ج1، ص137.

[7]– السكاكي، مفتاح العلوم: تح، عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2000، ص247.

[8]– الخطيب القزويني: التلخيص في علوم البلاغة، ط1، دار الفكر العربي، مصر، 1904، ص37.

[9]– ينظر: حسن إسماعيل، البلاغة الصافية، ط1، المكتبة الأزهرية للتراث،2006، ص،89.

[10]–بهاء الدين السبكي: عروس الأفراح، تح، عبد الحميد هنداوي، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2003، ج1، ص96.

[11]: ينظر: عبد العزيز عتيق: علم المعاني، ط1، دار النهضة العربية، لبنان، 2009، ص25.

[12]– بكري شيخ أمين: البلاغة العربية في ثوبها الجديد، ط1، دار العلم للملايين، لبنان، 1979، ج1، ص49.

[13]– أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، (د، ط)، دار أبي الجوزي القاهرة، 2009، ص35.

[14] : بغية الوعاة، ص228.

[15] : نزهة الألباء، ص56.

[16] : بغية الوعاة، ص227.

[17] : علي النجدي ناصف: سيبويه إمام النحاة، ط2، عالم الكتب، القاهرة، (د، ت)، ص135.

[18] : المرجع نفسه، ص130.

[19] : عبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، ص134.

[20] : حسن عون، تطور الدرس النحوي: (د، ط) معهد البحوث والدراسات العربية، مصر، 1970، ص 38ـ39.

[21] : التطور اللغوي، ص138.

* يقصد بالمنهج النسق الذي رتب به المؤلف أجزاء المشكلة وهل هو نسق منطقي يجعل المقدمات أولا تليها النتائج أو نسق تاريخي يجعل الحوادث السابقة أولا تليها الأدنى سبقا أو هو نسق موضوعي يقدم الموضوعات العامة التي يبدوا أن لها تأثيرا فيما يجئ بعدهـ التطور اللغوي، ص134.

* قد يتعارض هذا التصنيف مع ما هو موجود في الدرس اللساني الحديث، الذي يضع الدراسة الصوتية أولا تليها الدراسة الصرفية ثم النحوية...إلا أن المشكلة التي كانت تواجه النحاة الأوائل هي مشكلة التصرف الإعرابي المتعلقة بالتراكيب فقد كانت أكثر من غيرها ولذلك قدمت على غيرها.

[22] : شوقي ضيف، المدارس النحوية: ط2، دار المعارف، القاهرة، 1968، ص57.

* ممن تزعم هذا الرأي في العصر الحديث إبراهيم مصطفى، وجاء ذلك في فاتحة كتابه (إحياء النحو) وقد وقد انبرى له الكثير من العلماء في الرد عليه وعلى آرائه، وخاصة محمد عرفه في كتابه النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة والشيخ محمد الخضر حسن في كتابه دراسات في العربية وتاريخها.

[23] : سيبويه، الكتاب: (تحق) عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988، ج1، ص25.

[24] المرجع نفسه، ج1ص،25.

[25] : المرجع نفسه، ج1ص25.

[26]-المرجع نفسه ج1ص399.

[27]- عبد القادر حسين: أثر النحاة في البحث البلاغي، (د، ط)، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة،1998، ص114.

[28]- الكتاب، ج1، ص23.

[29]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز (تحق) محمود شاكر، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2005، ص 7.

[30]-ينظر: مصطفى المراغي: علوم البلاغة (د، ط)، المكتبة العصرية، بيروت، 2013.ص96

[31]- المرجع نفسه، ص96.

[32]-الكتاب، ج1، ص47.

[33]-أثر النحاة في البحث البلاغي، ص104.

[34]-الكتاب، ج1، ص55.

[35]-أثر النحاة في البحث البلاغي، ص105.

[36] : دلائل الإعجاز، ص146.

[37]: ينظر: جواهر البلاغة، ص87.

[38] الكتاب، ج1ص22.

[39] : المرجع نفسه، ص37.

[40] : محمد أبوا موسى، خصائص التراكيب، ط4، مكتبة وهبة، القاهرة، 1996، ص154.

[41] : الكتاب، ج1ص280.

[42] المرجع نفسه، ص281،282.

[43] : دلائل الإعجاز، ص147.

[44] : الكتاب، ج2، ص141.

[45] ينظر: الكتاب، ج1ص47.

[46] : أحمد مصطفى المراغي، تاريخ علوم البلاغة، ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1950، ص52.

[47] : الكتاب، ج1ص101.

[48] : دلائل الإعجاز، ص106.

[49] : الكتاب، ج1ص34.

[50] : الكتاب، ج1، ص42.

[51] : المرجع نفسه، ج2، ص143.

[52] : دلائل الإعجاز، ص109.

[53] ينظر: ابن يعش، شرح المفصل(تحق) مشيخة الأزهر، ط1، دار الطباعة المنيرية، مصر، (د.ت)، ج8، ص150ـ151.

[54] مرتضى الزبيدي، تاج العروس(تحق) إبراهيم الشرزي، ط1، مطبعة حكومة الكويت،2000، ج31، مادة(فهم)ً224.

[55] : شرح المفصل، ج8ص155.

[56]: ينظر: شرح المفصل، ج8ص 151.

[57]: ينظر: سعد الدين التفتزاني، المطول على التلخيص، (د. ط)، دار السعادات، مصر(د.ت)، ص 227.

[58]: الكتاب، ج3، ص،167.

[59]: المرجع نفسه، ص،167.

[60] : المرجع نفسه، ص، 169.

[61] المرجع نفسه، ج2، ص215.

[62] أثر النحاة في البحث البلاغي، ص93:

[63] تاريخ علوم البلاغة، ص56.

[64]–الجاحظ، البيان والتبين، تح، موفق شهاب الدين، ط3، دار الكتب العلمية، لبنان، 2009، ج1، ص68.

[65]–الكتاب، ج2، ص14،17.

[66]– علوم البلاغة، ص144.